ان الشجب والادانة اللذين ووجهت بهما الحركة الصهيونية من قبل جماهير اليهود في مختلف انحاء العالم، يقابله الدعم والتاييد والتبني من قبل الحكومة البريطانية التي ترى في تحقيق اهداف الحركة الصهيونية حادثا يتفق تمام الاتفاق مع المصالح الحيوية للامبراطورية البريطانية!

في تلك الحقبة من التاريخ وفي ظل الحكم القيصري العنصري الذي اذاق اليهود مرارة المذابح والاضطهاد والقهر، ظهرت بوادر الحركة الاشتراكية العلمية التي قادها لينين ووصل بها الى الاطاحة بالحكم القيصري وبناء سلطة السوفيات. في تلك الحقبة اعلنت الاشتراكية موقفها من المسالة اليهودية على لسان لينين نفسه اذ قال: «ان حقد القيصرية كان موجها ضد اليهود بصورة خاصة؛ فمن جهة كان اليهود يؤلفون نسبة عالية جدا من قادة الحركة الثورية بالقياس الى مجموع السكان اليهود، ومن جهة ثانية كانت القيصرية تعرف جيدا كيف تستغل أحط الاوهام ضد اليهود عند اشد فئات الناس جهلا وتنظيم مذابح ضدهم»[٤].

واذا حمل لينين على السياسة القيصرية تجاه اليهود فانه لم يتهاون ابدا في تحديد موقف الاشتراكية العلمية من الحركة الصهيونية. فهو ان كان يعتقد بأن السياسة القيصرية هي سياسة عنصرية فانه يعتقد ايضا بأن الفكرة الصهيونية هي فكرة عنصرية ايضا. وان الرد على العنصرية لا يمكن ان يكون عنصريا. لذلك فقد كتب يقول: «ان فكرة الشعب اليهودي الخاص رجعية من حيث مغزاها السياسي، وفكرة القومية اليهودية ذات طابع رجعي واضح، ليس فقط عند انصارها الدائمين [الصهيونيين] بل وحتى عند اولئك الذين يحاولون اقرانها بافكار الاشتراكية الديمقراطية [البونديين]. ان فكرة القومية اليهودية تتناقض ومصالح الكادحين اليهود وذلك بقيامها بتغذية الافكار المعادية للانصهار وتشجيع امزجة الغيتو»[٥].

ان ما حمله زعماء اليهود المناهضون للصهيونية من افكار قطرية حول المسالة اليهودية، ينسجم تماما مع الافكار الماركسية العملية التي طرحها لينين؛ وبصرف النظر عن اختلاف المنطلقات فقد جاءت النتيجة واحدة، وهي شجب وادانة الحركة الصهيونية التي تتناقض ومصالح اليهود انفسهم وتغذي في الوقت نفسه الافكار المعادية للانصهار وتشجع امزجة الغيتو. وقد اشار مونتاغو في مذكرته الى يهود روسيا بقوله: «لقد كان اعتقادي دائما ان الذين عكفوا على هذه العقيدة [الصهيونية] كانوا مدفوعين الى ذلك بسبب القيود المفروضة على حرية اليهود في روسيا... ولكن بعد ان تم الاعتراف بهؤلاء اليهود باعتبارهم يهودا روسا ومُنحوا حرياتهم كافة، فانه يبدو من غير المفهوم ان تقدم الحكومة البريطانية على الاعتراف الرسمي بالصهيونية وان يخوّل السيد بلفور سلطة التصريح بانه يجب ان يعاد تاسيس فلسطين كوطن قومي للشعب اليهودي».

يعترف مونتاغو هنا بان سقوط العنصرية في روسيا افقد الحركة الصهيونية او التفكير الصهيوني من اساسه كل مرتكزاته ومسوغاته. واعتبر ان مثل هذه الافكار وما تبعها من مواقف، وخاصة موقف الحكومة البريطانية وتصريح بلفور، لا مبرر لها.